المحطة الثانية:

مركزية السؤال الهادف في القرآن الكريم
ومفتاح تحصيل العلم وإيقاظ العقول

إعداد

أ.د/ عطية السيد عطية عبد العال

أستاذ المناهج وطرق التدريس بكلية التربية جامعة الأزهر بالقاهرة

ووكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث

المحطة الثانية: مركزية السؤال الهادف في القرآن الكريم ومفتاح تحصيل العلم و إيقاظ العقول

أ.د/ عطية السيد عطية عبد العال
أستاذ المناهج وطرق التدريس بكلية التربية جامعة الأزهر بالقاهرة
ووكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث

إذا كانت المحطة الأولى من سورة طه قد بسطت معالم البيئة الآمنة، تلك التي تنزع فيها قيود المشقة عن كاهل المتعلم وتُفسح الفطرة على سجيتها لتنمو طبيعيا كما يصدح به قول الحق تبارك وتعالى : ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه: ٢)، فإننا اليوم نسافر إلى محطة أخرى ومحطة لا تقل عنها عمقا وأثرا؛ لنشهد كيف يطلق هذا الأمان السكون النفسي والاطمئنان الوجداني العنان للعقل؛ ليحلق في فضاءات التفكير الرحبة؛ فبعد أن استقر القلب في محراب الطمأنينة وأضحى وعاء مهيئًا لاستقبال فيوض العلم وأنوار المعرفة يأتي دور السؤال، لا كسؤال عابر أو استفسار سطحي، بل كسؤال يوقظ العقل من سُباته العميق، ويحفزه على التفاعل الحي مع ينابيع المعرفة المتدفقة، إنها ليست مجرد محطة عابرة في طريق العلم، بل هي امتداد طبيعي ومنطقي للمحطة الأولى؛ فكما أن البيت الآمن هو المهد الأول لنمو الطفل نموا سليما فإن السؤال المحفز هو الشرط الأول لنمو العقل وتفتحه، وفي هذا السياق القرآني البديع يتجلى السؤال في أبهى حلله وأعمق دلالاته كما في قوله تعالى لموسى عليه السلام : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (طه: ١٧). إنه ليس سؤالا يراد به مجرد استجلاء معلومة غائبة، بل هو سؤال للتحفيز، سؤال يشعل جذوة الفكر ويوقظ مكامن الإبداع؛ فالسؤال الحي- أيها السادة- ليس أداة للاختبار أو وسيلة للمحاسبة، بل هو مفتاح الفهم وبوابة رحبة لرحلة اكتشاف بلا نهاية، رحلة لا تعرف التوقف وتتجدد مع كل تساؤل وتعمق مع كل إجابة، وهكذا تعلمنا سورة طه أن مسيرة التربية الحقة تبدأ ببناء السكينة النفسية، ثم تتواصل بإثارة الفضول العقلي في تناغم بديع وانسجام فريد بين **القلب والعقل**، بين **الأمن والمعرفة**، بين **الطمأنينة والتساؤل**.

إن النصوص القرآنية- أيها الأفاضل- ليست مجرد أوعية جامدة تُلقى فيها المعلومات تلقينا، بل هي منهج تربوي متكامل صاغه الحكيم الخبير، يهدف إلى بناء الإنسان بناءً شاملا، يُفَعَّل فيه **العقل والروح والوجدان**، ومن أبهى سمات هذا المنهج الرباني أنه لا يكتفي بالتلقين، بل يتجاوزه إلى إيقاظ العقل من غفلته ودفع الإنسان دفعا حثيثا نحو آفاق التفكير العميق والتساؤل البناء. فالقرآن الكريم بأسلوبه المعجز، يطرح السؤال لُيثير الفكر ويُلهب جذوة التأمل، ثم يأتي الرد ليرُسخ اليقين في القلوب، ويثبت الحقائق في العقول. ولقد فاضت آيات الذكر الحكيم بالعديد من الشواهد التي تُجلي هذا النهج الفريد حيث كان صحابة رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أولئك الأطهار الأبرار-

يســـألون النبي عن جلائل أمور دينهم ودنياهم، فيأتيهم جواب من لدن الله مباشــرة، ليكون توجيها نورانيا لهم وللأجيال المتعاقبة من بعدهم، هدايةً ورشادًا.

ففي ســورة البقرة الغراء توجد أمثلة ســاطعة لهذا التســاؤل والاســتفهام في مواقف شــتى، كاستفســارهم عن الأهلة، فيأتي الرد الإلهي: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾. وحين ســألوا عن الإنفاق جاءهم البيان الشــافي: ﴿يَسْــأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾. وكذلك كان سؤالهم عن الخمر والميسر، وعن المحيض، وعن القتال في الشــهر الحرام، فجاءت الإجابات لتُزيل اللبس وتُبين الحكم، وفي سورة الأنفال- كذلك- حين سألوا عن الأنفال، أتاهم الجواب القاطع: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. وحين اســتفســروا عن الروح في ســورة الإســراء، أجابهم العليم الخبير: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

إن هذه الأسئلة المتعددة، التي تخللت آيات القرآن الكريم، لتؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن المنهج القرآني يرسخ قيمة السؤال كأداة للتعلم والارتقاء، ويعكس فلسفة تربوية ترى أن في طرح السؤال أســاســا للنمو الفكري، وهو ما يتناغم تماما مع ما أســلفنا ذكره في المحطة الأولى من ســورة طه؛ حيث بناء البيئة الآمنة والركيزة الأساسية؛ فبعد أن يُطمئن المعلم نفس المتعلم، ويُهيئ له تلك البيئة التي لا يشــعر فيها بوطأة الشــقاء ولا القلق، يكون قد أعد الأرض الخصــبة التي ينمو فيها الســؤال نموا طبيعيا. **وهنا ننتقل بالتفصيل إلى المحطة الثانية** التي تجسد هذا المبدأ العظيم بشكل عملي في حوار مباشر بين الخالق العظيم وكليم الله موسى عليه السلام، حوار يبدأ بالاستفهام الذي يثير الفكر ويُحرك الوجدان.

إن المتأمل في آيات الذكر الحكيم، يدرك أن العلاقة بين الســؤال والقصــة ليســت مجرد صــدفة عابرة، بل هي نســج بديع ومنهج تربوي عميق، يُفضــي إلى إيقاظ العقول وتثبيت القلوب، ولنأخذ على ســبيل المثال لا الحصــر، قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: ٩]. هذه الآية- أيها الكرام- لا تقدم القصة بشكل مباشر وفج، بل تبدأ بسؤال استفهامي يُثير الفضول ويُلهب الشوق في نفس المتلقي لسماع الحديث. وهذا الأسلوب القرآني المعجز يوجه كل معلمٍ ومربٍ الي أن السؤال ليس مجرد أداة للاســتفســار، بل هو مفتاحٌ ســحريٌ لجذب الانتباه، وتهيئة النفوس لاســتقبال المعرفة. فتهيئة المتعلم لسماع القصة ليست خطوة هامشية، بل هي إجراء تربوي حتمي، ومتطلب قبلي، يمهد الطريق للفهم العميق والتأثر الصادق.

ثم تأتي القصة بعد هذا التمهيد البديع لا كجوابٍ جافٍ لسؤال مباشر، بل كإجابة شاملة وممتعة لسؤال ضمني يختلج في النفوس، سؤال عن كيفية مواجهة التحديات وتحقيق الأهداف. فحديث موسى- عليه السلام- بما يحمله من عبر ودروس، ليس مجرد سرد لأحداث تاريخية، بل هو جواب

عملي ومفصل لسؤال الإنسان الأزلي عن سبل النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة. إنه ينضوي على دروس عظيمة في الصبر على البلاء، والتخطيط المحكم للأمور، ومواجهة الطغيان بالحق، والاعتماد المطلق على الله في كل حين. فالقصة بهذا المعنى، ليست حكاية تروى، بل هي مدرسة تُعلم، وتجربة تُعاش، وجواب يضيء دروب الحائرين. ليس هذا فحسب، بل إن القصة في المنهج القرآني تعد أداة قوية للتعزيز والتثبيت الوجداني. فالقصص- أيها السادة- ترسخ المعاني والقيم في أعماق الوجدان بطريقة لا تستطيعها المعلومات المجردة أو النظريات الجافة؛ فمن خلال حوارات موسى- عليه السلام- مع ربه، ومع فرعون، ومع قومه، نتعلم أهمية السؤال الصادق والإنصات الواعي والوضوح في البيان وتوفير المعينات التي تعين على الفهم والعمل، وهذا كله يربط المحطات في سورة طه ببعضها البعض في سياق تربوي متكامل، رحلة تبدأ بالاستفهام الذي يُثير الفكر، وتستمر بالقصة التي تُثبت القلب، وتنتهي بالتعلم العميق عبر تجربة الآخرين، لتكون بذلك القصة جسرا يربط بين **العقل والوجدان**، وبين **النظرية والتطبيق**، وبين **الماضي والمستقبل، في بناء إنسان متكامل الفكر والشعور** قادر على مواجهة تحديات الحياة بثبات ويقين.

إن المحطة الثانية في رحلتنا هي مركزية السؤال الهادف، فالسؤال هو أحد محركات تحصيل العلم ومفاتيح إيقاد العقول، فالعقل البشري في أصفى حالاته، لا يرتوي من التصريحات الجامدة أو ينمو على التوجيهات الآمرة التي تُلقى إليه كقوالب جاهزة، بل على النقيض من ذلك، يترعرع هذا العقل النيّر مع السؤال ويكتمل نضجه مع التساؤل، ويبلغ أشده حين يُثير في نفسه الأسئلة الحارقة قبل أن يتلقى الإجابات الباردة؛ لهذا السبب، لم يأتِ القرآن الكريم مجرد كتاب أوامر جامدة وأحكام جاهزة فحسب، بل جاء ليُربي العقل والروح، من خلال طرحه للأسئلة ودفعه للتفكير والتأمل؛ يغمره السؤال ويشعل فيه جذوة البحث الدائم عن الحقيقة. فالعقل- أيها المتأمل- ليس بما يحويه من محفوظات، ولا الذكاء بما يراكم من معلومات، ولكن العقل- في جوهره- حركة دائمة، وتساؤل مستمر، وبحث دؤوب عن المعني الكامن فيما يبدو ساكنا، واكتشاف لما وراء الظاهر فيما يبدو بديهيا؛ ولهذا، لم يكن غريبا- بل كان عين الحكمة- أن يتخذ القرآن الكريم من أسلوب الاستفهام وسيلة لإيقاظ الفطرة السليمة، وتحريك الجمود الذي قد يعتري النفوس، وشحذ العقول لتنطلق في آفاق التفكير. فجاء المنهج القرآني الأصيل منهجا يُقِرُّ بأن السؤال هو مفتاح التعلم، وأحد أهم المحركات التي تدفع عجلة النجاح في مسيرة العلم والمعرفة.

وفي سورة طه- خاصة- تتجلى عظمة القرآن- كتاب الله- في فن الاستفهام، حيث تتكرر الأسئلة كمنهج تربوي فريد، وكأسلوب إلهي رفيع؛ في تهيئة العقول لاستقبال المعرفة والفهم واليقين. فحين **نتأمل أول هذه التساؤلات وفق أولوية الظهور** تأتي الآية التاسعة وقول الله جل جلاله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾. هنا ندرك أن القرآن لا يخاطب الأذن بما تسمع فحسب، بل يخاطب العقل بما يفكر، والروح بما تهتز له، والوجدان بما يشتاق إليه من معرفة ويقين. وندرك أن السؤال هنا ليس استفهاما عن جهل، حاشا لله، وإنما هو ضرب من الإثارة المعرفية العميقة، يُراد به أن يوقظ القلب من سباته، والعقل من خموده، ويهيئ المتلقي لاستقبال الفكرة بروح نشطة، وعقل متشوق، ونفس تواقة إلى الحق. فالسؤال هنا يأتي كمدخل للقصة، لا لتقديمها بشكل مباشر، بل لفتح

الشهية إليها وإثارة الفضول لسمعها. إن الآية: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ لا تقدم القصة بشكل مباشر، بل تبدأ بسؤال استفهامي يثير الفضول ويهيئ المتلقي لسماع الحديث. هذا الأسلوب القرآني يوجه المعلم إلى أن السؤال هو مفتاح لجذب الانتباه، وأن تهيئة المتعلم لسماع القصة هي إجراء تربوي حتمي لا غنى عنه. ثم تأتي القصة كجواب للسؤال، لا كجواب سطحي، بل كإجابة ممتعة ومقنعة، إجابة شاملة لسؤال ضمني عن كيفية مواجهة التحديات وتحقيق الأهداف. فحديث موسى- عليه السلام- يحتوي على دروس عظيمة في الصبر والتخطيط، ومواجهة الطغيان، والاعتماد على الله. القصة بذلك ليست مجرد سرد، بل هي جواب عملي ومفصل لسؤال الإنسان عن سبل النجاح والفلاح. وهي بهذا المعنى تستهدف **التثبيت الوجداني**، فالقصص القرآني يستهدف تثبيت قلب المتلقي وتقويته، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾. فكما أن القصص التي نزلت على النبي- صلى الله عليه وسلم- كانت تزيد من ثباته وصبره أمام التحديات، كذلك القصص التربوية تساهم في تعزيز الجانب الوجداني لدى المتعلم، وتجعله أكثر قدرة على مواجهة الصعوبات. إن سرد القصة **يخاطب العقل والوجدان معا**، وهذا ما يميزه عن مجرد نقل المعلومات الجافة. إن القصة **ترسخ المعاني والقيم في القلب** قبل العقل، **وتسهم في بناء إنسان متكامل الفكر والشعور**. إنها **أداة مفضلة للتعلم والتواصل الفعال والتأثير، وتُثير الانتباه والاستماع النشط لدى المتلقي**، وهذا ما يتجلى في قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، فالتلاوة المرتلة للقصص تجعلها أكثر تأثيرا ووصولا إلى القلب. كما أن القصص **تقدم نماذج حية للسلوكيات والأخلاقيات**، ومن خلالها يمكن للمتعلم أن يرى كيف تتجسد القيم في مواقف واقعية، مما يسهل فهمها وتطبيقها في حياته. والأهم من ذلك، أن القصة **تشرك المتلقي في عملية المعرفة**، حيث يعيش أحداثها وتتفاعل مع شخصيتها. **وهذا التفاعل يجعله شريكا في بناء المعنى**، مما يعمق فهمه ويجعله أكثر قدرة على الاستفادة من التجربة.

ثم يأتي **الموضع الثاني** لاستخدام السؤال في السورة، ليُجلي الدور المحوري والجوهري للسؤال في عملية التعلم، وذلك من خلال قوله تعالي لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ١٧]. هذا السؤال، الذي قد يبدو للوهلة الأولى بسيطا، يحمل في طياته دلالات تربوية عميقة، تُنير دروب الفهم، وتُعلي من قيمة التساؤل في بناء المعرفة.

لقد سبقت هذه الآية- أيها الأفاضل- آيات عظيمة: (طه: ١٤:١٥) تتناول لب وجوهر الرسالة الإلهية حيث قال تعالي: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ...﴾. هذه الآيات تؤسس لركائز الدين المحورية في ثلاثة مجالات:

١. **مجال العقيدة** في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾.
٢. **مجال الفقه والعبادات** في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.
٣. **ومجال الغيبيات والسمعيات** في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾.

بعد هذا **الحمل المعرفي المكثف**، يصبح من الطبيعي أن يتقطع التركيز والانتباه ويصعب على العقل استقبال معلومات جديدة. وهنا يبرز الدور الحكيم للسؤال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى؟﴾؛ ليخفف من وطأة هذا الحمل المعرفي. فبدلا من الاستمرار في تقديم معلومات جديدة، ينتقل الخطاب إلى سؤال بسيط ومألوف بالنسبة لموسى عليه السلام، مما يعطي العقل فرصة لالتقاط الأنفاس، واستيعاب المعلومات السابقة. والأهم هنا أن السؤال جاء في الوقت والمكان المناسبين، كأداة لإعادة تركيز الانتباه وتجديده، بل واستدامته، إنه يُحَوِّلُ المتعلم من مجرد متلقٍ سلبي إلى مشارك فعال في الحوار، وهذا التفاعل يمنع تشتت الذهن ويحافظ على استدامة الانتباه، مما يمهد الطريق لاستقبال المزيد من المعارف.

فضلا عن ذلك، فإن هذا السؤال يحقق ربطا بديعا بين **المجرد والمحسوس** فالآيتان السابقتان: (١٤-١٥) تتناولان مفاهيم مجردة وعميقة (توحيد الله- إقامة الصلاة- والساعة)، بينما السؤال في (الآية: ١٧) يربط الحوار بشيء ملموس ومحسوس في يد موسى- عليه السلام - وهو العصا، هذا **الانتقال** يوجه المعلم إلى أهمية البدء بما هو مألوف للمتعلم ليكون جسرا للوصول إلى المفاهيم الأكثر تجريدا؛ الأمر الذي تنادي به النظرية البنائية في وقتنا المعاصر، وهنا دروس مستفادة ووقفات تأملية مؤداها أن:

- **السؤال يخفف الحمل المعرفي:** السؤال يساعد على تخفيف العبء المعرفي خاصة بعد تقديم معلومات مكثفة، فهو يجدد الانتباه ويشرك الطالب في عمليات التعليم، هذا الأسلوب يتوافق مع نظرية الحمل المعرفي التي ترى أن البيئة المشحونة بالضغط تملأ الذاكرة بأعباء لا حاجة لها؛ مما يقلل من الاستيعاب والفهم، وعليه يبدأ الحوار بسؤال بسيط يهيئ به عقل المتعلم لاستقبال المعلومات اللاحقة بفعالية أكبر،
- **الانتقال من المجرد إلى المحسوس**: وعليه يجب على المعلم أن يربط بين هذه الأفكار المجردة مثل العقيدة والعبادات **والأشياء الملموسة في حياة الطالب**، هذا النهج يسهل على الطلاب استيعاب المفاهيم المعقدة ويجعل التعلم أكثر صلة بحياتهم، الأجمل هنا أن السؤال في الآية يمهد للانتقال من الواقع (العصا) إلى استشراف المستقبل، حيث سيتم استخدام هذه العصا في مهمة عظيمة. وهذا يُعلّم المعلم أن السؤال يمكن أن يكون جسرًا يربط بين ما يعرفه المتعلم وما سيتعلمه، وهذا ما تنادي به النظرية البنائية، مما يجعله أكثر استعدادًا لتقبل المعرفة الجديدة.
- **استدامة الانتباه:** السؤال لا يكتفي بإثارة الفضول، بل يساهم في استدامة انتباه المتعلم فهو يجعله شريكا فاعلا في الحوار لا مجرد متلقٍ سلبي، هذا التفاعل يحول عملية التعلم من التلقين إلى الاستكشاف.

والخلاصة: أن السؤال في هذه المحطة ليس مجرد استفسار، بل هو أداة تربوية فعّالة تهدف إلى تخفيف الحمل المعرفي واستدامة الانتباه، مما يمهد الطريق للتعلم العميق. وهذا يوضح أن

التعليم لا يجب أن يكون مصدرًا للمشقة النفسية أو الرهبة للطلاب، بل يجب أن يكون تذكرة ونورًا.

ننتقل الآن إلى الموضعين: الثالث والرابع، وهما موضعان متصلان يجسّدان فن الحوار التربوي المقنع والمؤثر في أسمى صوره، **فالموضع الثالث:** هو السؤال الاستفزازي الذي وجهه فرعون لموسى عليه السلام: ﴿**فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى؟**﴾ (طه: ٤٩)، الذي لم يأتِ لطلب المعرفة، بل كان مِصيدةً تُنصَبُ لإحراج موسي عليه السلام. فما كان من موسى إلا أن واجهه ببيانٍ بليغ، جمع فيه بين بساطة الإيمان وعمق العقل. فقد كان **الهدوء** سلاحه، و**الحكمة** دليله، فلم ينحدر إلى لغو الخصومة، بل ارتفع بحواره إلى سماء المعرفة، وحوّل السؤال الماكر إلى نافذة يطلّ منها فرعون على شمس التوحيد. وإجابته :﴿**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾، كانت كصاعقةٍ تجمع بين الإقرار بالربوبية وشهادة العقل على عظمة الخلق والهداية، فأثبت أن الإيمان والعقل صِنوان لا يفترقان مقدما أنموذجًا تربويًا فريدًا يفي مواجهة التدي.

فلمّا رأى فرعون ذلك، وعجز عن مواجهة الحجّة بالحجّة، عاد إلى المراء بسؤالٍ آخر: **الموضع الرابع:** ﴿**فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى**﴾، **وهو استفهامٌ يحمل سفسطة الجدل، لا حقيقة الطلب.** ولكنّ موسى لم يترك له مجالًا، بل كان جوابه كفيلًا بإنهاء المراء وفتح آفاق التدبر في مصير الأمم السابقة. إن هذين الموقفين ليسا مجرد قصص تُروى، بل هما منهجٌ تربويّ عظيم، يُعلّمنا كيف نتعامل مع الأسئلة الصعبة، وكيف نحتوي الجدل بالحكمة، وكيف نحول العقول من مجرد متلقية إلى متفكرة. إنها **دعوةٌ للمُعلم ليجعل من علاقته بطلابه حوارًا حيًّا لا أمرًا جامدًا، لتكون المعرفة ثمرةً تُجنى من شجرة الإيمان والعقل معًا.**

باختصار، هذه النماذج من الأسئلة القرآنية ترسم منهجًا متكاملًا في توجيه الفكر وتنشيط الروح النقدية لدى المتعلم، وتُعيد صياغة علاقة المعلم بالمتعلم في رحلة البحث عن الحقيقة لتكون من خلال:

- **فن التعامل مع الأسئلة الاستفزازية والجدلية:** يجب على المعلم أن يكون مستعدًا للتعامل مع الأسئلة الجدلية والاستفزازية التي قد يطرحها الطلاب. بدلًا من الدخول في جدال عقيم، يُعلّمنا موسى- عليه السلام- ضرورة الرد بعقلانية ومنطق، ورفع مستوى الحوار من السفسطة إلى الفكر العميق.
- **تحويل مسار السؤال ليصبح فرصة للتأمل والتعلم:** لم يكتف موسى بالرد على سؤال فرعون، بل حوّله إلى فرصة لإثارة العقل والوجدان، وفتح آفاق جديدة للتأمل في مسيرة الإنسان ومصيره. هذا يعكس أن دور المعلم ليس فقط الإجابة عن الأسئلة، بل استخدامها كبوابة لتعميق الفهم وتوسيع المدارك.

- **بناء علاقة حوارية:** هذا الموقف يعزز فكرة أن العلاقة بين المعلم والمتعلم ليست علاقة آمر ومأمور، بل هي حوار حي بين عقلين يتشاركان في رحلة البحث عن الحقيقة. هذا النموذج التربوي المتكامل يعيد صياغة هذه العلاقة لتكون مبنية على الاحترام المتبادل، والتعاون في التفكير، لا مجرد التلقين من طرف واحد. هذا الموقف القرآني يعطي المعلم نموذجًا عمليًا لكيفية توجيه الحوارات الصعبة، وتحويل التحديات إلى فرص للتعلم والتفكير.

ويأتي **الموضع الخامس** ليعكس موقفًا تربويًا آخر، جليل القدر، يتبدّى في عتاب الخالق لنبيه موسى عليه السلام بقوله: ﴿**مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى**﴾ (طه: ٨٣)، وهو عتابٌ لا يراد به التوبيخ، بل هو **تقويمٌ لطيف بهدف التعلم**، وتوجيهٌ حكيمٌ نحو الأولويات. فالسؤال هنا يُعلّم أن التقويم في التربية ليس سيفًا يُشهر للعقاب، بل هو أداة للتصحيح والارتقاء. إنه يدفع المتعلم إلى التأمل في أولوياته، ويدلّه على ما هو أهمّ وأجدى، ويُرشده إلى المسار المستقيم دون أن يُجرح شعوره. وفي هذا الموقف درسٌ آخر، وهو **الرفق في التوجيه**. فالعتاب جاء مهذبًا، ليُبين أن العلاقة بين المعلم والمتعلم يجب أن تُبنى على المودة لا الخوف. وأن الكلمة اللينة أقدر على إصلاح الخطأ من الكلمة الجارحة: "وقولوا للناس حسنا".

وأخيرًا، فإن هذا السؤال يُنبّه إلى **نتائج الأفعال**. إنه يدفع موسى إلى النظر في عواقب **تعجّله**، ويُنمّي فيه حسّ المسؤولية تجاه قومه، ويُعلمه أن القرارات ليست فردية، بل لها أثرٌ في الجماعة. فهذا الموقف يُعيد صياغة علاقة المعلم بطلابه، ليجعلها مبنية على الإرشاد، لا التوبيخ، وعلى الرفق، لا القسوة.

بعد أن رأينا في الموضع السابق كيف كان **عتاب الخالق** لنبيه موسى لطيفًا وحكيمًا في قوله: ﴿**مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى**﴾، ننتقل الآن إلى **الموضع السادس**، والذي تتجلّى فيه **قيمة المساءلة** في تقويم سلوك المخطئ. فعندما عاد موسى إلى قومه، واجه السامري بسؤال مباشر: ﴿**مَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ**﴾ (طه: ٩٥). إنه سؤال لا يحمل توبيخًا أو لومًا عامًا، بل هو مساءلة هادئة، تُوجّه الأنظار إلى **جذور الخطأ**. هذا الموقف يوجه المعلم الي أن المساءلة والمحاسبية يجب أن تكون **محددة وواضحة**، وتهدف إلى فهم الدوافع والأسباب التي أدت إلى الخطأ، لا مجرد معاقبة عليه. لقد أعطى موسى السامري فرصة للتبرير، فكان عادلًا في تعامله حتى مع المخطئ، وهذا يُشير إلى أهمية **العدل والإنصاف** في التعامل مع الطلاب ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ (المائدة: ٨). هذا الموقف يُقدم أنموذجًا تربويًا لكيفية التعامل مع السلوكيات الخاطئة التي تؤثر على الجماعة، ويدفع إلى فهم أن الأفعال لا تقتصر على الفرد، بل لها أثر مجتمعي ينبغي للمتعلم أن يدركه. وهكذا، نرى في هذين الموقفين كيف أن التربية ليست مجرد أوامر ونواهٍ، بل هي **حوار دائم**، يُعالج الأخطاء بلين، ويُقوّم السلوك بحكمة، ويُنمّي في المتعلم القدرة على التفكير في أفعاله ونتائجها.

أيها المتأمل، إذا كنا قد تتبعنا مسيرة السؤال في هذه السورةِ العظيمة، من الاستفهام البسيط عن العصا إلى الجدلِ العنيف مع فرعون، فإنها لم تبلغْ غايتها بعد، إلاّ حين عرجتْ بنا إلى عالم الغيب، في قولهِ تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا**﴾ (طه: ١٠٥). فإن هذا السؤال يُنهي سلسلةَ التساؤلاتِ التي بدأتْ من الدنيا الملموسة لتُفضي إلى الآخرة الغيبية. والجواب هنا ليس مجالًا للجدال، بل هو **حكمٌ قاطعٌ**، يُعلّمنا أن الإيمانَ يبدأ حيث ينتهي العقلُ. فالعقلُ يُدركُ الجبالَ في عظمتها، ولكنّه لا يُحيطُ علمًا بكيفيةِ زوالها. هنا يأتي **دورُ الإيمانِ بالخبرِ الصادق** ليُتمّم مسيرةَ الفكرِ ويُثبّتَ القلبَ على الحقّ الذي لا يُدركُ بالبصيرةِ وحدها.

ثمّ ما تلبثُ هذه السورةُ أن تُرينا وجهًا آخرَ من وجوهِ السؤال، وجهًا لا يطلبُ المعرفةَ ولا يقصدُ التوجيهَ، بل هو **سهمٌ مسمومٌ** يُرمى للتغريرِ والتضليل. وذلك في وسوسةِ الشيطان لآدم: ﴿**قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ**﴾ (طه: ١٢٠). فإن السؤالَ قد يكونَ **فخًّا منصوبًا**، يزيّنُ الباطلَ بعبارةٍ لطيفةٍ، ويُخبئُ الشرَّ في ثنايا كلمةٍ بريئة. إنها دعوةٌ للمُعلّم أن يُدركَ **نوايا الأسئلة**، وأن يُميّزَ بينَ سؤالِ المُتعلمِ الذي يطلبُ العلم، وسؤالِ المضلّلِ الذي يزرعُ الشكَّ. فليسَ كلُّ سؤالٍ يُطرحُ يُرادُ به الحقُّ، وليسَ كلُّ استفهامٍ يحملُ في طيّاتهِ الخيرَ والنور.

أيُّها المتأمل، بعد كل هذا، يتضح بما لا يدع مجالا للشك أن هذه السورةَ العظيمةَ لم تكنْ مجردَ قصةٍ، بل كانت **منهجًا تربويًا** يُلهمُ العقولَ ويُغذّي القلوبَ. وقد تبيّنَ من خلالها أن السؤالَ ليسَ نوعًا واحدًا، بل هو أنواعٌ لكلٍّ منها دلالتُه ومقصده:

- **السؤال المثير للفضول:** كما في قوله: ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ**﴾، الذي يشدّ الانتباهَ ويهيّئُ السامعَ لرحلةٍ قصصيّةٍ.
- **السؤال المخفف للحمل:** وذلك في قوله: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ**﴾، فهو يأتي بعدَ معانٍ مكثفةٍ، ليعطيَ العقلَ فرصةً لالتقاطِ أنفاسهِ بموضوعٍ مألوفٍ.
- **السؤال الاستفزازي:** كاستفهامِ فرعونَ: ﴿**فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ**﴾، الذي لم يُطرحْ لطلبِ الحقيقةِ، بل للمكيدةِ. وقد كانَ جوابُ موسى نموذجًا للجمعِ بينَ الإيمانِ والعقلِ.
- **السؤال التقويمي:** في قوله: ﴿**مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ**﴾، حيثُ يُستخدمُ السؤالُ أداةً للتوجيهِ اللطيفِ وإعادةِ ترتيبِ الأولوياتِ.
- **السؤال المباشر للمساءلة:** كما في: ﴿**فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ**﴾، الذي يهدفُ إلى فهمِ الدوافعِ وراءَ الخطأِ، لا الاكتفاءَ باللومِ.
- **السؤال المضلل:** في وسوسةِ الشيطانِ: ﴿**هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ**﴾، وهو نموذجٌ لسؤالٍ ظاهرُه النصحُ وباطنُه الإغواءُ.

- **الســؤال القاطع**: عندَ الحديثِ عن الجبالِ يومَ القيامةِ: ﴿**يَسْــأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا**﴾، حيثُ تأتي الإجابةُ مباشرةً وحاسمةً دونَ مجالٍ للج

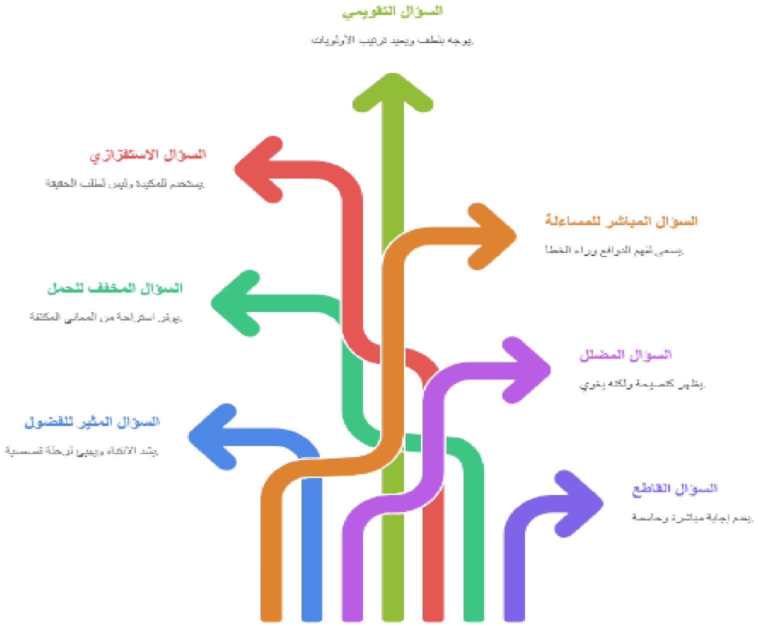

ومجمل القول إن المحطة الثانية ليست مجرد محطة عابرة، بل هي امتداد منطقي للمحطة الأولى؛ فكما أن البيت الآمن هو الشـرط الأول لنمو الطفل، فإن السـؤال المحفز هو الشـرط الأول لنمو العقل؛ فالسـؤال الحي ليس أداة للاختبار، بل هو مفتاح للفهم، وبداية لرحلة اكتشـاف لا تنتهي، ومن الدروس التربوية المستخلصة لفلسفة الاستفهام في سورة طه كمنهج تربوي متكامل يهدف إلى استكمال بناء إنسان متكامل الفكر والشعور والعمل. هذه الفلسفة ليست مجرد بدايةً، أود أن أشير إلى أن أسلوب الشيخ محمد الغزالي يتميز بالعمق الروحي، واللغة الأدبية القوية، والربط بين القضايا الشرعية والواقع المعاصر.

ومجمل القول إن **المحطة الثانية** ليست مجرد عبورٍ بلا أثر، بل هي امتدادٌ طبيعيٌّ للمحطة الأولى، وتُعدُّ تتويجاً منطقياً لها. فكما أن **البيت الآمن** هو الشـرط الأول الذي يُمهِّدُ لنمو جسد الطفل، فإن **الســؤال المحفز** هو الشـرط الأول الذي يُنعشُ العقلَ ويُطلقُ عنانَ فكره. إن **الســؤال الحي** ليس أداةً لإجراء اختباراتٍ صمّاء، بل هو مفتاحٌ يفتحُ آفاقَ الفهم، ويُشعلُ جذوةَ المعرفة، ويُطلقُ رحلةَ اكتشافٍ لا تتوقفُ عندَ حد. وهكذا، نجدُ في **فلسفةِ الاستفهامِ في سورةِ طه** منهجاً تربوياً متكاملاً، يُعيدُ بناءَ الإنسانِ من جديد، ويصقلهُ فكرياً، وشعورياً، وعملياً. فليست هذه الفلسفةُ مجردَ طرحٍ للأسئلةِ، بل هي عمليةٌ مقصودة تهدف إلى:

١. **تهيئة البيئة الآمنة للأسئلة وخلق مناخ من الثقة**: فقبل طرح أي سؤال، على المعلم أن يتأكد من أن البيئة الصفية آمنة ومريحة للطلاب، ويجب أن يشعر الطلاب بالاطمئنان والسكينة، وأن يدركوا أن الأخطاء هي جزء طبيعي من عملية التعلم.
٢. **تشجيع حب الاستطلاع**: فيجب أن يُنظر إلى السؤال كبداية لرحلة اكتشاف، وليس مجرد أداة للاختبار؛ فالمعلم الفعال هو الذي يطلق العنان لخيالات الطلاب ويشجع فضولهم.
٣. **تنويع أنواع الأسئلة ووظائفها**: فالسؤال المثير للفضول: فعلى المعلم أن يستخدم الأسئلة كمقدمة للقصص أو الموضوعات الجديدة، هذا الأسلوب يثير انتباه الطلاب ويجعلهم أكثر استعدادًا للتعلم.
٤. **السؤال المخفف للعبء المعرفي**: فبعد تقديم معلومات مكثفة، على المعلم أن يطرح أسئلة بسيطة ومألوفة للطلاب، وهذا الأسلوب يساعد على تجديد الانتباه ويمنح العقل فرصة لاستيعاب المعلومات.
٥. **السؤال التقويمي**: فبعد حدوث خطأ من الطلاب، على المعلم أن يستخدم الأسئلة كأداة للتقويم والتوجيه، وهذا السؤال يجب أن يكون عتابًا لطيفًا يحفز على تأمل الأولويات، لا عقابًا يثير الخوف.
٦. **التعامل مع الأسئلة الصعبة والجدلية**: فعندما يواجه المعلم أسئلة جدلية أو عدوانية، عليه أن يرد بعقلانية ومنطق، وأن يرتقي بالحوار من الجدال إلى الفكر العميق.
٧. **السؤال كأداة للمساءلة والمحاسبية**: ففي حالة وقوع خطأ سلوكي من أحد الطلاب، يمكن للمعلم استخدام أسلوب المساءلة المباشرة والمحددة، وهذا يساعد على فهم الأسباب والدوافع وراء السلوك الخاطئ، بدلًا من الاكتفاء بالعقاب.
٨. **التحصين من الأسئلة المضللة الخادعة:** فعلى المعلم أن يُدرك أن بعض الأسئلة قد تكون أداة للتضليل؛ لذلك، يجب على المعلم أن يُحصّن طلابه من خلال تنمية مهارات التفكير النقدي لديهم، ليميزوا بين السؤال الهادف والسؤال المضلل.
٩. **توجيه الفكر وتنشيط الروح النقدية**: فالأسئلة في السورة ليست مجرد استفهامات، بل هي محفزات للتفكير النقدي؛ بما يُحفّز على التأمل في الأولويات، ويُنمّي لدى المتعلم حسَّ المسؤولية.
١٠. **الجمع بين العقل والإيمان**: حيث تُظهر فلسفة الاستفهام أن بعض الأسئلة تحتاج إلى إجابة عقلانية، بينما البعض الآخر يتطلب الإيمان بالخبر القرآني، وهذا يُعلّم أن العقل والإيمان متكاملان في رحلة البحث عن الحقيقة.

وهكذا، فإن المحطة تُعلّمنا أن التربيةَ الصالحةَ تبدأ ببناءِ السكينةِ النفسيةِ، لتتواصلَ بإثارةِ الفضولِ العقلي، في تناغمٍ بديعٍ بينَ بين القلب والعقل، وبين الأمنِ والمعرفة.